

جامعة نايف العربية للعلوم الأمنية
Naif Arab University For Security Sciences



الفن والابداع في الثقافة والاعلام

الدكتور : التهامي نقرة

الرياض

1407 هـ - 1987 م

الفن والابداع في الثقافة والاعلام

الدكتور التهامي نقره*

الثقافة الاسلامية وسماحتها:

لتكون الثقافة الاسلامية صورة حية للأمة تحدد ملامح شخصيتها وتضبط اتجاهات سيرها واهدافها، وتصدر عن عقيدتها ومبادئها ونظامها وتاريخها وتراثها، ينبغي ان يكون في مقدمة ما يهتم به رجالها، أن يحولوها من نظر مجرد الى واقع حي وأن يصلوا حياة الناس بها، حتى تكون منطلقا لسلوكهم ومصدرا لشعورهم، وطابعا لنمط حياتهم. وبذلك يخرجون مدلول "الثقافة" عن المعرفة المجردة الى المعرفة الهادفة، لأن الثقافة تواكب الأمة في أحوالها المختلفة، وفي سيرها مع حركة الحياة.

وإذا لم يكن للأمة شخصية ثقافية تميزها، أو سمات تنفرد بها آلت الى الاضمحلال معنوياً.

وثقافة كل امة تقوم على أساس من القيم التي تسود مجتمعتها، وهي العقيدة والتراث والفكر والتقاليد الاجتماعية المرعية وأهم السمات المميزة للثقافة الاسلامية، الثبات والشمول والتوازن والوحدة، والحركة.

أما ثباتها فلأنها تعتمد على حقائق لا تتبدل وأصول لا تتغير، ومبادئ لا تبلى من ايمان وتقوى وخير وبر وإخاء، وعدالة وحب واحسان، وهذه المعالم والحدود التي وضعتها الثقافة الاسلامية ليست ضوابط للكبت، لكنها نداءات للخير، حتى لا يكون المسلم كالإمعة ان أحسن الناس أحسن، وان أساءوا أساء، وذلك عملاً بقول الرسول ﷺ: (وَوَطَّنُوا أَنْفُسَكُمْ أَنْ تَحْسَنُوا، وَإِنْ أَسَاءُوا أَنْ تَتَجَنَّبُوا أَسَاءَتِهِمْ).

* رئيس قسم القرآن بالكلية الزيتونية تونس.

ومبادئ الاسلام الحنيف توحى دوما بفكرة الخلود وتقرن بما يشد الانسان اليها، وتدفعه الى الانتفاع بكل ما في وجوده في الأرض حتي يناله في السماء وتبعث فيه القدرة على مواجهة الحياة والأحداث والأشياء يمثل قوتها وأقوى. وأما الشمول فيتمثل في ذلك التصور الشامل الذي يبدأ مع الحقيقة الالهية التي يصدر عنها الوجود كله. فالثقافة الاسلامية تأخذ من الاسلام شموله وسعته، لذلك فهي تعرض الحياة متصلة متناسقة محكومة بقانون واحد كبير، في حين ان بعض الثقافات الأخرى تعرض الثقافة مقطعة الأوصال، مفرقة الأجزاء من خلال الجنس، أو المال أو الصراع الطبقي أو من خلال التفسير المادي للتاريخ ومن المسلم به ان الحقيقة الأشمل هي الحقيقة الأجل.

فهذه الهوة التي تفصل الانسان عن ذاته، وتفصل الكون عن الله هي التي يملؤها الاسلام في روح الانسان، ليجعل لوجوده هدفا ومعنى. وأما التوازن فتلاحظه في الثقافة الاسلامية بين الجوانب المختلفة المادية والروحية والفكرية والوجدانية ولو اقتصرنا على جانب واحد من جوانب الحياة، أو أشبعت جانبا على حساب جانب آخر، لما استطاعت ان تستجيب لطبيعة الانسان ونزعاته الفطرية واختل التوازن الذي أراده القرآن.

فعنصر التوازن في الاسلام أصيل لأنه يقدم تعاليمه على أساس التوازن بين المادة والروح.

جاء رجل من مجتمع علماني ليتعرف على الاسلام، فكانت دهشته في نهاية الأمر عظيمة حين قال: لقد أجفلت أول الأمر لا لاهتمام القرآن بالأمر الروحية فحسب، بل لاهتمامه أيضا بكثير من وجوه الحياة التي كانت تبدو لي تافهة، الأ أنني مع الزمن بدأت أفهم أنه اذا كان الانسان حقا وحدة كاملة من جسد وروح، فإنه ليس هناك وجه من وجوه حياته يمكن ان يكون من التفاهة بحيث لا يقع داخل نطاق الاسلام.

ولا شك ان لهذا الجانب الموحد من الفلسفة الاسلامية نتائج ايجابية في مجالات النشاط الانساني.

أما الوحدة فان عقيدة التوحيد التي هي الدعامة الأولى للثقافة الاسلامية تتلخص في وحدانية الله، وعنهما نشأت وحدة الخلق، أي الوحدة الحق بين المادة والروح، وكذلك وحدة العلم والايان، ووحدة الدينوي والروحي، وكذلك الوحدة الانسانية، فلا تفرقها الألوان والأجناس والأقاليم.

فلاسلام لا يعتبر كل جيل أمة مستقلة، بل يعتبر الأجيال كلها رغم تباعد الزمان والمكان أمة واحدة. لذلك خاطب القرآن الرسل ببناء واحد رغم تباعد الأزمان التي تفصل بينهم فقال تعالى:

﴿يَا أَيُّهَا الرُّسُلُ كُلُوا مِنَ الطَّيِّبَاتِ وَاعْمَلُوا صَالِحًا إِنِّي بِمَا تَعْمَلُونَ عَلِيمٌ وَإِنَّ هَذِهِ أُمَّتُكُمْ أُمَّةً وَاحِدَةً، وَأَنَا رَبُّكُمْ فَاتَّقُونِ﴾^(١)

وأما الحركة فهي أن علوم الوسائل والمقاصد وعلوم الدنيا والدين تدور كلها حول محور واحد، وتجعل حركة كل واحد منها مرتبطة بحركة سائرهما، والدوافع لهذه الحركات العلمية وهو المبدأ الايماني الذي به طلبت العلوم، واليه تتجه نتائجها.

أما اليوم فقد توزعت الشخصية الاسلامية بين خطين متوازيين لا يلتقيان، خط المعارف الدينية، وخط المعارف العصرية، فبقيت في مفترق الطرق، لأنها لم تجد الاطمئنان الى متابعة سبيل يفصلها عن ذاتها، ولا الى متابعة سبيل يفصلها عن عصرها، وصارت عناصر الثقافة الاسلامية متنافرة متضاربة بين علوم دينية وعلوم سميت بالعصرية، حتى كاد الدين ينكر العصر، والعصر ينبو عن الدين، خلافا للوضع التكاملي الذي كانت عليه من قبل. أما اليوم اشتبهت السبل، وتشعبت المسالك واختلط الأصل بالذخيل، والحقيقة بالزيف، والفن بالغشاء.

الفنون والاعلام:

لقد اصبحت الفنون الجميلة في العصر الحديث من صميم الثقافة فما هو موقف الاسلام من هذه الفنون؟ وما هي الأسس الضابطة للحركات

١ سورة المؤمنون. الآية: ٥١ - ٥٣.

الثقافية التي لا تصادم المجتمعات الاسلامية، ولا تجرفها الى حيث الانسلاخ والمسخ والضياح؟

وهذا التساؤل لا يعني الحجر على سلوك الناس أو ضبط سلوكهم في قوالب معينة، ولكنه يعني اقناعهم عن رضا لمعرفة ما يتيح الاسلام وما لا يتيح لحركة الانسان داخل نفسه وداخل اسرته وفي بيئته التي يعيش فيها ويتعامل معها أخذًا وعطاء، حتى لا يضل عندما تنفتح أمامه آفاق جديدة تبدو له روعة الحياة وجمالها الأخاذ من خيال الأوربي وتعبيره الذاتي. فتحديد معالم المجتمع المسلم، ووضع ضوابط لحركته في مجال الثقافة على ضوء تعاليم الاسلام مما ينقذ مجتمعاتنا في هذه الفترة التي لم يشهد تاريخها الاسلامي لها مثيلا في الانحلال الخلقي والتفسخ الاجتماعي تحت قناع الفن في كثير من الأحيان.

ومن التجني على الفن أن نجعله ذريعة الى المتع الرخيصة، واثارة الغرائز الدنيا، وما ورثناه من تراث فني لا يلزم ان يكون دائما اسلاميا حتى نعمل على احيائه فقد يكون من افرازات عصور الانحطاط، فلا بد اذن من تشخيص هذا التراث واعادة تقويمه من الوجهتين الفنية والاخلاقية لمعرفة ما يغرسه في النشء من شهامة وفتوة وبطولة أو مكر وتمييع واستسلام، فنبقى على الصالح، وننبذ الفاسد الذي تأباه الأخلاق الرفيعة، ويأباه ديننا الحنيف.

فالقضية تتمثل في ما نراه من فن معربد ان صح التعبير - فيفسح له المجال في مختلف مجالات الاعلام، دون اعتبار لما ينتج عن انتشاره من ضرر وفساد، أو ما يصادم من مبادئ وقيم وتقاليد.

ومن عرف نفاذ هذا الغناء الذي يسمونه فنا ومدى تأثيره في نفوس شبابنا وعرف ضعف بعض اقطارنا في ضعف وسائلها في الرقابة والمقاومة يدرك مدى خطورة الوضع

وفي عصرنا الحديث كاد ينحصر مفهوم الثقافة في الفنون الجميلة التي تغذي النفس، وتسمو بها عن الحياة اليومية الرتيبة. فالمشاعر والتجارب الباطنية وما يتولد عنها من انتاج أدبي وفني تشكل

اليوم في المجتمعات المعاصرة قطاعا من أهم القطاعات، وتسهم الى حد كبير في تكييف المجتمع، وتعد عنوانا على رقي الأمة وحضارتها.

الدين والفن:

ولكن تتابنا الحيرة عندما نتساءل: ماهي ابعاد التجربة الباطنية للانسان المسلم في ميادين الفن التي أضحت كالضوء أو الظل الذي يحسم المشاعر، وهي الألوان التي تميز كل مجتمع انساني وتطبعه بطابع خاص، وهي الأرضية التي عليها يقوم الوجود الاجتماعي والحضاري بصورة عامة. انها قضية اخرى في ثقافتنا الاسلامية المعاصرة، تفرض وجودها على الباحثين لأننا كثيرا ما نصطدم بشبهات تدور حول هذه العناصر الأساسية بالنسبة للثقافات المعاصرة. ومن هذه الشبهات مثلا ما يقال بأن الاسلام لا يساعد على نمو التعبير الفني على اختلاف أشكاله في حرية تكفل له الافادة من تجارب الآخرين.

والحقيقة ان الاسلام لم يقف يوما ضد الأشكال، لا في ميدان الحكم والادارة، ولا في ميدان الاقتصاد والاجتماع، ولا في ميدان الآداب والفنون بل هو على العكس من ذلك يعتبر ان الأشكال قضية ديناميكية لا تستقر على حال واحدة، ولا تقف عند حد.

ومن ثم فان التشبث بالشكل الواحد في كل عصر مناقض لطبيعة الحياة، وانما يرفض الاسلام كل اتجاه لا ينسجم مع نظرته الى الانسان، وكل انعكاس في عصر ساده تصرف ما، وكل تصور نابع عن افرازات مرضية يطرح غثاءها فرداً أو جماعة أو حضارة مزيفة ينتظرها التدهور والسقوط في نهاية الطريق ومن حق المجتمع الاسلامي، بل من واجب كل مجتمع ينشد الفضيلة ان يقاوم كل ما يتستر وراء الفن من ضلال وشذوذ وتفسخ، ولكن ليس من حقه ان يصادر الفن الرفيع الذي يكشف عن وجدان الانسان واحاسيسه الذاتية بمختلف وسائل التعبير، ويمتاز بسمو اهدافه وقوة تأثيره.

والمجال في الفن لا ينبع من الاتقان والجودة فحسب، بل ينبغي ان

يكون أخلاقياً، ومن هنا كان الفن الرفيع مثل الدين قائماً على قواعد الأخلاق الرفيعة.

فالفن الرفيع ليس ذلك الذي يثير في النفس أحر المشاعر وأعنفها، ولكنه ذاك الذي يثير فيها أكرم المشاعر وأنبهها
فاذا أبدع الفن في تصوير نوع من الشذوذ أو الانحطاط، وحملنا بهذا الابداع في لغته أو أسلوبه أو خياله على أن نعطف على الانحلال، ونعجب بالتفسخ فان مجتمعنا لا بد ان تسري فيه العدوى عن طريق هذا الفن المغربي.

وفي اعتقادي هنالك صلة بين رجل الدين ورجل الفن، فالدين والفن كلاهما يضيء من مشكاة واحدة هي القبس العلوي الذي يملأ قلب الانسان بالراحة والصفاء والايمان. وأن مصدر الجمال في الفن هو ذلك الشعور بالسمو الذي يغمر الانسان عند اتصاله بالأثر الفني.
وتأكيد هذه الصلة بين الدين والفن يخدمها معا، فنخدم الدين حين نستخدم وسائل الفن وطرائقه في نشر التعاليم والمبادئ الاسلامية، ونخدم الفن حين نرتفع به الى مستوى الذي يتعالى عن الاخلاط وسوء الاستغلال فيكون ذلك تكريماً للفن.

وقد نشأ الفن منذ ان استيقظت في الانسان حاسة الجمال والقدرة على التعبير عنه وما استلهم الانسان قديماً روائعه الا في سكون المعابد، والهياكل الدينية فالفن في أكمل صورته معبر عن أعماق تجارب الانسان الباطنية ويلتقي بالدين في اللحظة التي تستغرق المؤمن وهو يذوب حباً في الله، وواعجاباً بما أبدع في كونه من آيات الجمال.

فأين هذه العلاقة التي تربط بين الجزء والكل، وذلك التناغم والتجاوب بين القريب والبعيد، وبين الانسان والكون من احساسه في الوجودية الملحدة بأنه غريب أو معزول عن الكون، تفصله عنه جدران سميكة لا نهاية لها أو جدران كأنها مرآة أينما نظر لا يجد الا نفسه فهذا الانفصام الشنيع هو من صنع الوجودية، هو من صنع الانسان

الوجودي ولا يمكن ان يأتينا من خارج، انه من صنع فلسفة التشاؤم والعبث.

فلماذا هذا اليأس والتمزق الداخلي ونحن لم نخلق عبثاً؟
﴿أفحسبتم أنما خلقناكم عبثاً وانكم اليينا لا ترجعون﴾^(١) وهذه الرؤية العبثية ألوان من المأسى والانحرافات تنكشف من وراء أقنعة الفنون. في جولة من جولات بباريس رأيت بالحي اللانيني ما يجلب الانتباه.

فهذا رسام يضرب بفرشاته على اللوحة بجنون علّه يزيد قلقه. وهذا عازف ينفخ في البوق نفخاً متواصلاً عنيفاً يكاد يصم الآذان، ليصب ألمه ويدفع خوفه.

وهذا عرض مسرحي يقدم بكل سخف، وقد تحطمت فيه قواعد المعقول حتى غدت فيه كل حركة أشبه بمشية السكران، لا هدف لها ولا معنى.

وما يقال عن الحركات في المسرح يقال عن الكلمات في القصص المريضة والقصائد المائعة أو الغامضة التي تجسد العثيان والهبوط في الشكل والمضمون. فحيثما اتجهنا في هذه الفلسفة الوجودية وجدنا هذا الانعكاس الحزين للعبث والمذاقات التي لا تعطي لهؤلاء المرضى سوى العلقم. وقد كان لهذا الفن المريض - ان صح التعبير - أسوأ أثر على أخلاق بعض شبابنا في حين ان الفن الاسلامي بمفهومه العقائدي والتصوري يمثل أوسع نظرة جمالية متفتحة على الانسان والكون، لأنه يستمد تصورات من الحقيقة لا الزيف، ومن الصحة النفسية والنفس السوية لا المرض والانحراف، ولم يعرف في قاموسه العبثية واللامعقولية، والحرية اللااخلاقية، ونحو ذلك من العبارات التي تنتهي في مدلولها الى الفوضى والاحاد.

الفن في التصور الاسلامي:

الفن المعبر عن روح الاسلام يرفض هذا التمزيق المشوه لكيان

١ . سورة المؤمنون . الآية : ١١٥

الانسان فالقصص الجنسي الذي يثير الغريزة، ويصور الحياة كلها كأنها لحظة جنسية مسعورة، وكل ما تعكسه القيم والمفاهيم، فتصور انتصار الشر كأنه سنة كونية وكذلك القصص الذي لا يهدف الى شيء وان صيغ في قوالب فنية لأن الاسلام جعل للفن هدفا أسمى من اثاره الميول الهابطة، هدفا يؤدي دوره في النفس دون أن ينفرها، فالفن يدخل عليها عن طريق الجمال، وهو طريق قريب الى الفطرة، حبيب الى الشعور والجمال الذي يحتفي به الفن الاسلامي لا يقف عند حدود الحسن ولا يحرص في جمال المرأة، أو في قالب محدود، ولكنه الجمال بمعناه الواسع في الاحياء والطبيعة والمشاعر والتصرفات.

ان جمال الانسان الذي خلقه الله في أحسن تقويم، ورفع منزلته في الكون. وان جمال الكون بنجومه وشموسه وأقماره وما بينها من تجاذب وارتباط وجمال الطبيعة بما فيها من جبال وأنهار وأشجار وجمال المشاعر بما فيها من حب وخير ونبل.

وجمال القيم والأفكار والمبادئ

فالظلم قبح لأنه ينافي جمال العدل، والحق قبح، لأنه ينافي جمال الحب، والانحلال قبح، لأنه ينافي جمال الخلق.

وهكذا فان كل ما يعرض لحياة البشر من انحراف واختلال هو قبح، لأنه خروج عن الجمال الذي يتسق مع ارادة الله في خلقه للكون وتصرفات الانسان فيه فاذا كان النشاط الفني تعبيرا انسانيا عن تصورات الانسان وانفعالاته واستجاباته، وعن صورة الوجود والحياة في النفس، فان هذه الانفعالات والاستجابات انما يبعثها في نفس المسلم تصورها الاسلامي بشموله لكل جوانب الكون والنفس والحياة من حيث علاقتها ببارئها، وتصورها لحقيقة الانسان، مركزة في الكون، وغاية وجوده، ووظيفته ومصيره.

الخ

وكلها يشملها التصور الاسلامي الذي هو ليس مجرد تصور عقلائي وانما هو تصور اعتقادي مؤثر، ومسيطر على كل انفعال.

ومن هنا يصح القول بأن الفن الاسلامي واقعي ملتزم، وانساني ايماني، وثوري توحيدي، وأخلاقي ايجابي، ولا يمكن ان يكون اعلامنا اسلاميا اذا لم تكن حياتنا اسلامية. بمعنى انا نعيش الاسلام، ونتفاعل معه بمشاعرنا.

فمن أبرز صفات الواقعية الاسلامية:

١ - ان الحقيقة عند المسلم وحدة مكونة من ثلاثة عناصر: الحق والخير والجمال. فأفكارنا غايتها الحق، وسلوكنا هدفه الخير، وعواطفنا وجهتها الجمال.

٢ - ان هذه الواقعية ذاتية موضوعية، لأن الفنان الحق من يرى العالم من خلال ذاته، وليس معنى ذلك انه ينطوي على نفسه، حتى تصبح ذاته هي عالمه الوحيد الذي لا شيء - قبله ولا بعده. كما ان من ابرز صفات هذا الالتزام انه عفوي لا تقوم علاقته بالعطاء الفني على العسر والتكلف والاكراه.

فنبع الفن الاسلامي لا ينضب، وهو يتطلب ما يتطلبه كل فن من فكر ووجدان، واحساس وذوق، ومعرفة وتأمل، ومشاركة واندماج. المعالم والحدود التي وضعها الاسلام ليست قيودا واغلالا، ولكنها اشارات حارسة لكل فنان يجب ان يرتفع بفننه، فلا يقع في التفاهة والتبذل أو الازدواج العداء بين الاسلام والفن:

وقصة العداء بين الفن والاسلام من رواسب عهود الانحطاط وليس لها من أسس دينية الا اذا افحمننا في الفن ما ينزل بمستوى الانسان فالقرآن الكريم يوجه الحس الى الجمال في المصاييح التي تزين السماء وفي الحدائق ذات البهجة، وفي الضحى الرائق، وفي الليل الساجي بل في الأنعام. ﴿ولكم فيها جمال حين تريحون وحين تسرحون﴾^(١).

فهو لا يدع فرصة دون توجيه المؤمن بكل الوسائل الفنية المعبرة نحو آيات الله في الكون، ومن ثم كان اللقاء متجددا في داخل النفس، وفي صفحة الكون، لا ينفذ ولا يزول.

١ سورة النحل. الآية: ٦

ومن أمثلة ذلك قول الله عز وجل: ﴿إِنَّ اللَّهَ فَالِقُ الْحَبِّ وَالنَّوَى، يَخْرِجُ الْحَيَّ مِنَ الْمَيِّتِ وَيَخْرِجُ الْمَيِّتَ مِنَ الْحَيِّ، ذَلِكُمْ اللَّهُ فَأَنَّى تُؤْفَكُونَ. فَالِقُ الْإِصْبَاحِ وَجَعَلَ اللَّيْلَ سَكَنًا وَالشَّمْسَ وَالْقَمَرَ حَسْبَابًا ذَلِكَ تَقْدِيرُ الْعَزِيزِ الْعَلِيمِ. وَهُوَ الَّذِي جَعَلَ لَكُمْ النُّجُومَ لِتَهْتَدُوا بِهَا فِي ظُلُمَاتِ اللَّيْلِ وَالْبَحْرِ قَدْ فَصَلْنَا الْآيَاتِ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ. وَهُوَ الَّذِي أَنْشَأَكُمْ مِنْ نَفْسٍ وَاحِدَةٍ فَمُسْتَقَرٌّ وَمُسْتَوْدَعٌ، قَدْ فَصَلْنَا الْآيَاتِ لِقَوْمٍ يَفْقَهُونَ. وَهُوَ الَّذِي أَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَخْرَجْنَا مِنْهُ نَبَاتٍ كُلِّ شَيْءٍ فَأَخْرَجْنَا مِنْهُ خَضِرًا نُخْرَجُ مِنْهُ حَبًّا مَتْرَاكِبًا وَمِنَ النَّخْلِ مِنْ طَلْعِهَا قِنْوَانٌ دَانِيَةٌ وَجَنَّاتٌ مِنْ أَعْنَابٍ، وَالزَّيْتُونَ وَالرَّمَانَ مَشْتَبَهَا وَغَيْرَ مِثْلِهِ انظُرُوا إِلَى ثَمَرِهِ إِذَا أَثْمَرَ وَيَنْعِهِ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ﴾^(١).

إن الأشياء التي عرضتها هذه الآيات تشتهي، لذلك لم يقل كما في موطن آخر من القرآن، "كلوا من ثمره إذا أثمر"، وإنما قال: "انظروا" بعيون مفتوحة، وحس مستشرف لتملى الجمال، لأن المعرض معرض الجمال المبتوث في الطبيعة، والقدرة التي تبدهه والقرآن في ذاته كتاب جميل ممتع لا ينتهي منه تاليه، حتى يجب أن يعود إليه. فأسلوبه البديع ووجهه المشرق، وروحه الصافية، لتنقل للإنسان الفه وعاداته، وتمهزه هذا ليستيقظ ويتأمل.

فالإنسان يعيش في القرآن مع الكون وفي لقاء جميل، والقرآن يخاطب في ذلك حسه وروحه ومن هنا تخرج من مدرسته آلاف وآلاف على مر العصور، كانوا نقادا وذواقين، لأن مخاطبة كينونة الإنسان لن تؤتي ثمارها إلا إن تصاغ النداءات والتعاليم، وفق أحسن الأساليب فنا، وأشدّها اثارة واستجابة.

وما الذي يمنح الشاعر أن يقول على لسان مؤمن يغزو الفضاء مثل هذا القول:

١ - سورة الأنعام. الآيات: ٩٥ - ٩٩

صاعد في الجو يبغى مأربا في مدار الشمس أو مسرى القمر
كلما أمعن سيرا في الفضاء وجد الأرض تناهت في الصغر
والجبال الشم في أرجائها قد بدت في العين اشباه الأثر
أين من يملأ كبرا صدره وارم الأنف وفي الخد صغر
يملاً الأرض فسادا طيشه كل عود من أذاه ينصهر
هو والرحمة ضدان ولا يعرف الرفق وان لان الحجر
أين من ينكر رباً قادرا وهو في انعمه الغر غمر
يرتع الجاحد في خيراته ثم يمضي وهو بطران اثر
يدعي - ظلما وزورا - انه ليس الا العلم رب مقتدر
من علوم الأرض في علم السما غير حشر الطير من ماء النهر
ليس عمر المرء الا ومضة من سنين الضوء تأتي من مجر
ليس من حق الانسان اذن ان يعبر بفنه عما يدور في عقله من أفكار

ويعتمل في قلبه من عواطف، ويجيش في وجدانه من مشاعر؟

ليس من حقه ان يسهم في أي ميدان من ميادين الفن مادام يرى في
ذلك نتيجة تقربه الى هدفه، أو تقرب الجمهور منه، فيعرض عليهم صورا
حية تحيل الكلمة الى انطلاقة، والهمسة الى صرخة، والسكون الى حركة
وأضواء وظلال ولم يقف حائرا تتنازعه عوامل الاقدام والاحجام، أو يرفض
الدخول من باب الفس، وقد حمل في قلبه عقيدة التوحيد.

ليس القلم من سيوف الحق يرفه الشاعر أو الكتاب المؤمن ليستنهض
الهمم ويدفع الى الاحياء والتعمير، وبالعزائم الى مقاومة الشر والعدوان؟
نحن في حاجة الى دعوة أو نداء يخاطب أعماقنا دوما في قصيدة أو
قصة أو لوحة، أو اغنية ليخرجنا من غربتنا عن هذه التيارات الأجنبية،
ويزيغ عنا هذا الزكام.

وإذا كان الفس الصادق يغرف من معين الحياة، فان الاسلام لم يصادر
مباهج الحياة وزينتها، لذلك كانت الحياة في الاسلام متكاملة ترضي الجسد
والروح، وتستوكب الجد والتسلية، وتستكمل الاشواق، وتستجيب
لدواعي الكمال والجمال والترويح

ألم يكن الاسلام دين الفطرة؟ ومن فطرة الناس التي خلقهم عليها
حبهم للترفيه، وميلهم للترويح. ولكن الاسلام احاط هذه الرغبة بسياج
من الفضائل، وجعلها منوطة بنبل الأهداف، حتى لا يخرج بها الهوى الى
حيث المجون والاستهتار ومعصية الله.

ففي الاسلام دائرة فسيحة اسمها المباح، تشمل ما لم يرد فيه نهي،
وهي الأصل في كل شيء. - ومن البدهي ان دائرة المأمورات والمحظورات
تصغر بجانب دائرة المباح، كما يصغر المستثنى بجانب المستثنى منه، وحسب
المباح الا يكون ضارا أو يؤدي الى ضرر والمبالغة في استعمال الشبهات
توسيع لخروج الاستثناء عن اصله. وشبابنا المسلم في أشد الحاجة الى ما
يملاً عليهم أوقات فراغهم من ضروب الترويح والتسلية البريئة التي
تكسبهم ذوقا ومهارة وترهف احساسهم، وتعلمهم وهم يرحون، ثم هي
في الوقت نفسه تعدهم لاستئناف أعمالهم بكل جد ونشاط.

ولكن أنى لنا اليوم ما يروح عن نفوسنا من انتاج فني مقروء أو
مسموع أو مرئي، لم يخل من فن وابداع في تأليفه وعرضه، ولم ينتهك
الفضيلة.

لا شك ان تزايد الانتاج السينمائي على الشاشة الصغيرة والكبيرة
خلال هذه الفترة وما بلغه من عمق وتأثير في تصوير أزمة العصر الحديث
بكل أبعاده الفردية والأسرية والاجتماعية، باعتباره جامعا للفنون كلها،
الكلمة والحركة والصورة والتعبير والموسيقى بعد ان هيات له التكنولوجيا
الحديثة من وسائل مكنته من أداء مهمته على وجه يشد الجمهور ويبههم،
ليفرض على الأمة العربية والاسلامية الا تترك المجال الكبير، والسلاح
الخطير فغيرنا ممن جعلوا من الأفلام التلفزيونية والسينمائية منصة يلتقي فيها
قادة الفكر والفن في الغرب، ليملوا على الناس آراءهم بأسلوب جذاب
ومؤثر، ويوجهوهم نحو الوجهة التي يريدونها، أو يشركوهم معهم عن طريق
الايحاء النفسي في حيرتهم وقلقهم ومعاناتهم والله تعالى يقول: ﴿يا أيها
الذين آمنوا ان تطيعوا فريقا من الذين أوتوا الكتاب يردوكم بعد ايمانكم

فالشريط السينمائي والتلفزيوني يحول الفكرة الى حركة، ويجسد القيم والاتجاهات والفلسفات التي تعمل عملها في حضارة هذا القرن، وذلك بما أصبح لها من امكانيات وطاقات قد لا توجد في غيرها من الفنون الأخرى.

ومن هنا تحتم على الاعلام العربي ان يوجه عناية فائقة الى السينما الذي يعبر عنه الفن السابح، لأنه ذو حدين، فيكون الخبراء والفنيين في التمثيل والاخراج والانارة والسيناريو والتسجيل والتصوير، والاتقاط والارسال كما يقنتي الأجهزة والمعدات الفنية، حتى اذا منعت المراقبة في أي بلد عربي عرض فيلم من الأفلام وجدت ما يعوضه من البدائل.

أما اذا فقدت البديل الصالح، فلا مناص من سد الفراغ ولا ننسى أن الاعلام ليس آلة فتوغرافية تسجل الصورة كما هي عليه، ولكنه تفسير للأحداث بطريقة غير مباشرة من خلال وجهة نظر معينة.

فالاسلام قادر على مواجهة تحديات العصر في مجالات الفنون على اساس الاقرار بأن المجتمعات البشرية تخضع للتطور التاريخي ولو في شكل معين وهذه الحقيقة لا تتجسم الا باخراجها من النطاق النظري المجرد إلى مخطط ومناهج عملية قابلة للتطبيق.

والواقع ان الاسلام يعيش اليوم غريبا بين اهله، لأنهم يجهلون الكثير عنه، فهو في قلوبهم كالتيار الكهربائي الضعيف، لا يدير آلة، ولا يحرك جهازا، ولا ينير مصباحا، ولا يعطي كيانا حقيقيا للأمة.

يقول المصلح الديني عبد الحميد بن باديس رحمه الله عند تفسيره لقوله تعالى: ﴿كَلَّا نَمُدُّهُؤَلَاءَ وَهُؤَلَاءَ مِنْ عَطَاءِ رَبِّكَ، وَمَا كَانَ عَطَاءُ رَبِّكَ مَحْظُورًا. انظر كيف فضلنا بعضهم على بعض وللآخرة أكبر درجات وأكبر تفضيلا﴾ (٢) ان الناس سواء في النعم الدنيوية والتمكن من اسباب التقدم في

١ سورة آل عمران. الآية: ١٠٠

٢ سورة الإسراء. الآية: ٢١

هذه الحياة، لا فرق في ذلك بين بر وفاجر، ومؤمن وكافر فلا يمنع الله كافرا لكفره أو عاصا لعصيان من اسباب الرقي وال عمران، فهي مبذولة للخلق كلهم على السواء وهذا الذي أفادته الآية الكريمة مشاهد في تاريخ المسلمين قديما وحديثا، فقد تقدموا حتى سادوا العالم، ورفعوا لواء المدنية بالعلوم والصناعات، لما أخذوا بأسبابها كما يأمرهم دينهم، وقد تأخروا حتى كادوا يكونون دون الأمم لإهمالهم تلك الأسباب. فهذه الآية من أنجح الدواء لفتنة المسلم المتأخر بغيره المتقدم وقد بينت ان المسلم لم يتأخر بسبب اسلامه، كما يزعم أعداء الاسلام.

دور الاعلام ودور المربين:

ان الاتجاهات الثقافية اليوم بما فيها الفنون الجميلة، وبخاصة الفن السابع السينما الذي مازالت تأخذ بناصيته شركات أجنبية أشبه بتيار هوائي عنيف يقتحم علينا أوطاننا وبيوتنا.

ولو افترضنا انا نملك القدرة على القيام دون تسرب هذه التيارات الى مجتمعاتنا، فقد حولنا عن غير قصد منا اهتمام بعض شبابنا نحو المنطقة المحظورة لحب الاطلاع على الأقل، وقد رأينا نحن الذين هم أقرب من غيرنا تاريخيا وجغرافيا الى مواطن هذه الحضارات وهذه التيارات بالبحر الأبيض المتوسط، ان طائفة من الشباب الذين حرص أولياؤهم ان يسدوا على أعينهم الستائر والحجب كيلا يروا الا ما يسمح به منظورهم ان يروه، ولا يعرفون من شئونها الا ما يحبون ان يعرفوه، كانت ردود فعلهم لما تفتحت عيونهم وأذانهم على هذه الأنماط الخلابة من الحياة المعاصرة نحيفة، اذ تاهوا في الغواية، وفقدوا توازنهم، وعجزوا عن الانسجام مع ذواتهم وشخصياتهم، فانجذبوا مدفوعين نحوها.

ومن الخطأ ان نفهم الدعوة الى عدم الافراط والمبالغة في تشديد المراقبة على المراهقين الشباب هي دعوة الى التهاون والاهمال أو منحهم مطلق الحرية في التصرف والسلوك، لأنني رأيت بالتجربة ان العقول والعواطف كالأجسام تفقدها المغلاة في المحافظة عليها من الجرائم

والأمراض الحصانة والمنعة وتجعلها أكثر تعرضا إليها، وأقل احتمالا ومقاومة لها.

ونحن نرى اليوم بعض الأسر المحافظة كثيرا ما تشدد في التحصينات الشكلية ولكنها تترك أولادها خواء من أجل حصانة ذاتية وداخلية، فينزلقون عندما تزول هذه الحواجز المصطنعة لأنهم لم يتزودوا بما يقف كالأمصال الواقية في وجه التيارات الهدامة ثم اننا في الوقت نفسه نجد غلاة آخرين، لكن في اتجاه معاكس، أولئك الذين يضيقون في دائرة المباح، ويوسعون في دائرة المحرمات ولا يرون في نسق الحياة العصرية الا الخطر والشر، فأعلنوا رفضها جملة وتفصيلا والتطرف في جانب لا يتيح الا تطرفا مماثلا في الجانب المقابل.

فمنهج التربية السليم تجنب الإفراط والمغالاة في التشديد أو في التسامح وهنا يأتي دور الاعلام التربوي بما يقدمه للناشئة الاسلامية من غذاء فكري ووجداني وتربية اخلاقية وجمالية، وفن سام، ودراسات هادفة في مختلف المعرفة

ولا يلزم ان يكون العمل الاعلامي الواحد يخاطب الجمهور على اختلاف درجاته من الثقافة والمعرفة، فان وجد عملاقان فبيان كلاهما جيد من الوجهة الفنية احدهما يخاطب فئة ثقافتها عالية، والآخر يخاطب فئة أقل ثقافة، فانها على درجة عالية واحدة من الفضل، لأن المهم مراعاة النفع والاجادة الفنية فلا يطغى الكم على الكيف. اذ ان الأسلوب الفني في العرض والتقديم هو الذي يجذب الجمهور ويشده اليه ولا يمنع ذلك من تحديد هذا الجمهور ومعرفة مستواه، وتفهم حاجاته وتطلعاته، ولا سيما الأطفال والشباب وقد قال الرسول ﷺ (امرت ان انزل الناس منازلهم، وأن أخاطب الناس على قدر عقولهم).

كما ان الاعلام الاسلامي ليس مواعظ تلقى، أو خطبا تتلى، أو أحاديث دينية تذاع، فان الطريق المباشر في التربية والتوجيه قد لا يفيد كثيرا في هذا العصر، والحقيقة تضيع اذا قدمت في اطار رديء يطفئ بهاءها، فكان من أوكد الواجبات تطوير اجهزة الاتصال الجماهيري ووسائله،

وجعلها أكثر فاعلية وحيوية ترفه على الجمهور وتنشطه وتوجهه، وتوعيه بأهمية دوره في التنمية الوطنية الشاملة وتقوي فيه ارادة التغيير، وروح المبادرة وكل ذلك يحتاج الى جهد متواصل لاكتساب الخبرة، وحذق التعليم وحس الاستعمال والذي يجب ان تعيه الأمة العربية لتصليح شئوننا في مختلف نواحي الحياة بعد ان أزاحت ما كانت ترزح فيه من قيود الاستعمار أن تؤمن بأن أحداث الحياة لا تمهل، وعجلة التطور لا تقف، وتنازع البقاء لا ينتهي والغلبة للأقوى والبقاء للأصلح هو القانون العملي.

فعلى اعلامنا العربي ان يستقطب كل ما يوجه الى عمليين متوازنين: عمل من الداخل يوقد جذوره الايمان في القلوب التي خدت، ويبعث القوة في العزائم التي وهنت، ويكبح أهواء النفوس التي جمحت، ويعمل على التوعية الهادفة وعلى تعبئة الطاقات المادية والروحية لتحقيق الأهداف الوطنية.

وعمل من الخارج يحسن الانتقاء والاختيار لما يقدم من ثقافات أجنبية، أو يعرض من برنامج تلفزيونية ويعزز التعاون وينمي بين الأقطار العربية في مختلف المجالات العلمية والثقافية والاقتصادية، حتى تكون بينهم وحدة ثابتة الأركان، وقوة ترهب عدو الله وعدوهم، وتقف في وجه البغي والعدوان وحسبنا ان نرى في عصرنا كيف يتحد الشيوعيون والماسونيون وغيرهم ممن ينتمون الى مذهب أو ايدولوجية واحدة رغم اختلاف أجناسهم وأوطانهم ولغاتهم، لأن هذه الوحدة تركز على دعامة قوية، وهي المبادئ التي غرسها في نفوسهم جميعا ثقافة معينة.

فكيف بالثقافة الاسلامية العربية ومصدرها الموحد عقيدة التوحيد وبها سادت الأمة وصنعت المعجزات، والله يقول الحق وهو يهدي السبيل.